المقال الثانى

طب عصر الفراعنة

لقد وقفت منذ أشهر قلائل أنصت فى خشوع إلى عرض الصوت والضوء، وقد مزق أبو الهول السكون الرهيب الذى التزمه قروناً طويلة، فوقفت أتساءل عما عسى يرويه شاهد التاريخ الأول عن الطب والأطباء، إذا ما استجاب يوماً إلى قلق فضولنا.

لقد ظل علماء التاريخ يؤكدون أن الطب فى عصر الفراعنة، لم يكن سوى رقى وبخور مع بعض المعرفة للأعشاب، ولقد كان هذا الرأى من السذاجة بمكان، فكيف كان هؤلاء العلماء يعقلون أن المصريين شيدوا أهراماً تزن عدة ملايين من الأطنان، على أشكال هندسية متكاملة، ولم يخطئوا فى توجيه بعضها سوى فى خمس دقائق من الزاوية، كيف كانوا يعقلون أن هؤلاء المهندسين يخدعون بمثل تلك الخزعبلات؟

ولنفرض جدلا أنهم خدعوا، فهل خُدع بهم علماء الإغريق من أمثال: أفلاطون، وأبقراط، وبثاغورس، وغيرهم، الذين لم يضنوا بسنوات ثمينة من شبابهم يدرسون فيها على كهنة مصر دون أن يصلوا - على قول مؤرخيهم - إلى تمام علمهم وكامل أسرارهم؟ أكان الإغريق - وهم مبتكرو الفلسفة ومبتدعو المنطق - يضيعون وقتهم فى مثل هذا السفه إن لم يظفروا بعلوم تشفى غلتهم؟

وما القول فى «قورش» إمبراطور الفرس وغيره من الأباطرة الذين لم يسلموا صحتهم إلا لأطباء من المصريين، وفى «دارا» الذى أرسل طبيبه المصرى «أدجا حورسنت» إلى مصر ليعيد بناء مدرسة «سايس» التى كان «قمبيز» هدمها من قبل، أو فى الأمراء الأجانب الذين كانوا يفدون إلى مصر ليعالجهم أمثال الطبيب «نب أمون» الذى نراه مرسوماً على جدار مقبرته وهو يقدم الدواء لأمير سورى يتبعه خدم محملون بالهدايا[٦١] (شكل ٣-٢٤). أو فى قول «هوميرس» فى (الأودسة)): «إن كل أهل مصر عالمون بفن العلاج فهم من سلالة «بيون» طبيب الآلهة؟»، وذاعت شهرة الأطباء

المصريين حتى فى عهد الإغريق، إلى حد أن كاتباً إغريقيًا اسمه «أنا خرسيس»، كان يعتب على مواطنيه تفضيلهم الأطباء المصريين على أبناء وطنهم.

لقد ظلت الفكرة البدائية شائعة بين المؤرخين حتى سنة ١٩٣٠م عندما ظهرت ترجمة (بردية إدوين سميث) التى قال عنها مترجمها «برستد». إنها لابد قد أحدثت ضجة بين علماء مصر فى هذا الوقت، وأنا أقول إن هذه الضجة لا تقارن بتلك التى أحدثتها بين علماء الآثار المصرية فى عصرنا هذا. وقد بلغ إعجاب ناشرها بها حداً جعله ينسبها إلى أمحوتب نفسه، إله الطب (شكل ٢-١).

وقد تكون الفرصة سانحة لنقول كلمة عن اللفائف الهيروغليفية التى نسميها البرديات الطبية. فقد دلت دراسة الأساليب اللغوية التى كتبت بها، ومقارنة بعضها ببعض، على أنها كلها منقولة عن أصول أقدم، وعلى أن المعلومات التى تحتويها مستقاة من موسوعات طبية أو من مخطوطات، ترجع إلى أول عهد الأسر، وإن كنا لا نعرف شيئاً عنها.

ولنذكر من بين الأدلة على هذا القدم ورود بعض العبارات مثل «هنا وجد تمريق»، أو «هنا لم توجد أية كتابة»، أو تعليقات عن فوائد الوصفات المذكورة، أو بعض الألفاظ العتيقة التى اقتضت تفسيراً لغويًا، وهذه العبارات كلها مكتوبة بالخط نفسه فى صلب المتن، كأن النص والهوامش استنسخت من دون تمييز:

أما فيما يخص بردية إدوين سميث التى ذكرناها، فإنها تحمل تاريخ ١٥٥٠ق.م. ويرجح الأستاذ محمد كامل حسين، أن يكون مؤلفها من معاصرى بناء الهرم الأكبر، إذ كانت إصابات الرأس الناتجة عن سقوط من ارتفاع، والتى تزخر بها تلك البردية، كثيرة الحدوث. وقد رأى أنه لم يكن من الكهنة السحرة الذين ينصرفون بعد تلاوة التعاويذ وإطلاق البخور. رأى فيه إنساناً يدفعه ضميره إلى ملازمة المرضى لليالى طويلة يترقب فى أثنائها علامات الإبراء أو النكسة، ثم يفكر فيما لاحظه، ولا يقصر فى تشريح الموتى لمعرفة سر الوفاة، وبعد ذلك يملى ملاحظاته فى لغة طبيعية بسيطة ليست من كلام المتفقهين.

تصف هذه البردية ثمانية وأربعين مشهداً واقعيًا فى جراحة العظام والجراحة العامة،

تبدأ بالرأس وتهبط حتى القطن. وربما كان يشمل فى الأصل كل أجزاء الجسم، إذ أن آخر مشهد فيه - وهو: يخص العمود الفقرى - يختم بعبارة ناقصة.

ومما يلفت النظر النظام الذى يسود طريقة العرض، فإن كل مشهد يبدأ بالعنوان التالى: «تعليمات فى شأن....»، ثم يجئ الفحص: «إذا تفحصت رجلا به....»، ويتبعه التشخيص: «قل فيما يخصه إنه يشكو من....»، ثم تذكر النتيجة المتوقعة وتعبر عن ثلاثة احتمالات: الشفاء المؤكد، والمشكوك فيه، والميئوس منه، بالعبارات الثلاث التالية: «سأعالجه» أو «سأكافحه»، أو «مرض لن أعالجه». وبعد ذلك يأتى العلاج، وهو ينتهى بالتعليقات والتفسيرات. ولا شك فى أن هذا النظام وهذا التبويب وهذا الترتيب من دلائل تفكير أصيل، وتأمل دقيق، وتقاليد طويلة سبقت الكتابة.

ويضاف إلى تلك الصفات خلو البردية من السحر، اللهم إلا فى حالة واحدة لا يتوقع لها الشفاء، وربما كان سبب هذا الخلو أنها تناولت جروحاً ظاهرة الأسباب، وأنها لم تتعرض إلى أمراض لها أسباب خفية يمكن إرجاعها إلى الآلهة والأرواح.

وتتجلى واقعية هذه البردية كذلك فى دقة الملاحظات التى تسردها، فقد عرف مؤلفها، ولا شك فى أنه كان طبيباً غاية فى التدقيق، عرف قيمة قرقرة العظام فى التمييز بين الكسر والجزع، وقد عرف الجزع بأنه إصابة الأربطة دون تغيير فى وضع العظام، وعرف صلة المخ بالحركة الإرادية وتعيين ناحية الشلل بناحية الدماغ المصابة، وأدرك علاقة الصمم بإصابة عظمة الصدغ، وأكد قيمة جس جروح الرأس، فشبه كسر الجمجمة بثقب فى إناء من الفخار، وصرح بسوء مآل الحالات التى لا يشعر فيها بنبض المخ، وتلك التى يحس فيها العظم منخفضاً داخل المخ، وتلك التى يلاحظ فيها تصلب الرقبة والنزف تحت الملتحمة ومن المنخرين أو من الأذن.... كما وصف كسر العمود الفقرى وما يتبعه من شلل رباعى وانتصاب واستمناء دون فقدان الوعى، وخص الاستمناء بكسور وسط الرقبة ليس غير. ومما يشير إلى إجراء المؤلف الصفات التشريحية لتلك الحالات، أنه شبه الفقرة المنغرزة فى الفقرة التى تليها بالقدم التى تغوص فى أرض منزرعة.

أما عن العلاج، فقد وصفت تلك (البردية) رد الكسور والخلوع بطرائق تتم على مهارة فائقة، فمن التعليمات الورادة بها، فيما يخص علاج كسر الترقوة: «ألق المريض

على ظهره، ثم ضع بين اللوحين وسادة حتى يبتعد جزءا ترقوته، ويرجع العظم المكسور إلى موضعه. وبعد ذلك ثبت وسادة من الكتان على الجانب الأنسى من ذراعه. واضمده بالأمرو* ثم بالعسل فى الأيام التالية». ورأى الأستاذ محمد كامل حسين فى تلك الطريقة «أن الطب الحديث لم يجد أحسن منها وأنها ترقى إلى درجة من الكمال لا داعى عمليًا لتحقيقها».

وفى (البردية) نفسها إرشادات خاصة بخلع الفك الأسفل: «إذا تفحصت رجلا عنده خلع فى الفك الأسفل ولا يستطيع إقفاله فضع إبهاميك على طرفى الفك داخل فمه وأصابع يديك تحت ذقنه ثم عليك بعد ذلك رده إلى الخلف فيعود إلى مكانه». وقد وصف أبقراط تلك الطريقة بالألفاظ نفسها. واقتبس العرب أمثال المجوسى وابن سينا هاتين الطريقتين وكأنهما عرباهما تعريباً.

وكان كسر الأنف يعالج بإدخال لفائف صغيرة من الكتان داخل فتحتيه لحفظ شكله. وفى اللفافة نفسها وصف لمرض قد يكون التتانوس، وهو مرض نسب أو ذكر له لأبقراط. وهذا الوصف خص حالة كسر فى الجمجمة تبعه تقلص فى الرقبة وتعوج فى الفم، وقال عنها إنه لا سبيل إلى علاجها، غير أن الأستاذ الدكتور محمد كامل حسين يرجح أن الحالة هى حالة التهاب سحائى.

تلك هى بردية إدوين سميث وهناك برديات أخرى، لن أذكر منها فى هذا المجال سوى اثنتين هما (بردية كاهون) و(بردية إبرز).

أما الأولى فقد عثر عليها فى مدينة اللاهون بالفيوم، وأسماها العالم الذى وصفها (بردية كاهون) مخطئاً فى اسم البلدة، وهى أقدم بردية طبية، بالمعنى الحقيقى، كما أن الأصل الذى استنسخت منه أقدم من أصول البرديات الأخرى. وهى تصف سبعة عشر تشخيصاً فى أمراض النساء وقدراً مماثلا من حالات الولادة ومن طرائق التكهن بجنس النساء أو جنس الجنين. وقد جمع فيها بين طب النساء والطب البيطرى ولا أدرى مغزى هذا.

وفيما يخص (بردية إبرز)، فإنها ترجع إلى عهد (بردية إدوين سميث)، وهى المرجع

* مرهم مجهول تركيبه

الأساس لمعرفتنا الطب الباطنى. وقد وصلتنا كاملة دون نقص أو تشويه. تحوى مجموعة صنفت من مؤلفات وصلت صفحاتها إلى الكاتب متناثرة، فاستنسخها حسب ترتيب وصولها، فأدى هذا الخلط إلى بلبلة أجهدت الإخصائيين عندما حاولوا تفسيرها.

ومما يدل على تقوى قدماء المصريين وعلى نظرتهم إلى المرض أن هذا المؤلف استهل بالدعوة الآتية : «هنا يبدأ كتاب تحضير الأدوية لأجزاء الجسم وأمراضه جميعاً. ولدت فى هليوبوليس مع كهنة «حت عات»، ولدت فى سايس مع إلهات الأمومة، ومنحنى سيد الكون كلمات أستعين بها على طرد الأمراض وإبعاد الآلام الوبيلة.... يا إيزيس خلصينى من جميع المؤثرات الشريرة، ومن الأمراض الشيطانية، والملوثات التى رميت بها كما خلصت ابنك حورس».

أما النظرة الشعبية إلى المرض على أنه من أفعال الأرواح، فإننا نراها، بالإضافة إلى النصوص الطبية، فى خطاب ظريف وجهه مريض إلى زوجته المتوفاة، يلومها فيه على مرضه، فيذكرها بما كانت حظيت به وهى فى كنفه من الرعاية والعناية، وبأن تلك العناية لم تتأثر بازدياد ثروته واتساع سلطانه، كما أنه يشير إلى ما أقامه لها من المآتم الفخمة اللائقة بها.

غير أن الصلوات والتعاويذ فى (بردية إبرز) لا تتجاوز الاثنى عشر بين ٨٧٧ فقرة. ويمكن تقسيم الباقى إلى (فارماكوبيا) شاملة لأمراض البطن والجلد والعينين والنساء والأطراف، والجروح والحروق، ثم إلى كتابين فى القلب والأوعية يعدان أقدم مؤلفين يتناولان الحياة والمرض ووظائف الأعضاء بطريقة واقعية خالية من التأملات الفلسفية أو الروحانية أو أساطير الآلهة، وهو يختتم بباب مطول عن الأورام.

وقد وردت فى تلك البردية فقرات جديرة بالإعجاب. فإليك وصفاً ينطبق تماماً على الذبحة الصدرية أو انسداد الشريان التاجى : «إذا تفحصت مريضاً بالمعدة يشكو من آلام فى ذراعه وصدره وناحية من معدته.... قل بصدده الموت يهدده»

ثم إنها تضم مجموعة من أوصاف الأورام ومن السمات الإكلينيكية التى تميز أنواعها المختلفة، من أورام دهنية وفتق وتمدد شريانى، وأكياس وخراريج وهى جديرة بدارسة مستقلة، فقد أوصت البردية بجسها، فإذا كانت متموجة أوجب حسبانها سائلة أو دهنية،

وإذا كانت نابضة فهى أورام أوعية لا تعالج بالمشرط، وإذا كانت تظهر من جدار البطن فوق العانة بعد السعال أمكن إرجاعها إلى البطن (فتق). ومنها ما هى - على حد قولها - أبشع وهى التى تظهر البثرات وترتسم الرسوم على سطحها وتحدث آلاماً شديدة فيقال عنها إنها أورام الإله «خونسو» ولا يفعل لها شيء أى أنها لا تشفى، وهذا الوصف قد ينطبق على الجمرة أو السرطان. ومنها أيضاً الخارجة عن إمكانات العلاج ومن المحتمل أنها تصف الجذام.

وقد نقشت فى بعض مقابر الأسرة السادسة بسقارة أورام تمثل الفتق السرى، والقيلة المائية أو الفتق الإربى، وورماً أو تضخماً بالثدى، وقد تمثل هذه المجموعة تليف الكبد البلهارسى ومضاعفاته[٦٢].

ولعل المكان المناسب لذكر الجراحات التى كان المصريون يجرونها، ويجدر بنا أولا أن نتساءل: هل عرفوا التخدير؟ والإجابة هى أنهم عرفوا خواص نباتات مخدرة كثيرة مثل الأفيون والسكران واللفلح، ولعلهم استعملوها لتخدير المرضى قبل إجراء الجراحات، وإن لم يُذكر شيء من هذا فى النصوص المعروفة.

أما ما ذكر عن التخدير فإنه يقتصر على نبذة وردت فى وصف الرحالة «سترابو» لزيارته لمصر، وهى التى قال فيها: «إن المصريين يخلطون حجر منف بالخل ويضعونه على سطح الجلد ليخدره». وقد فسر البعض هذا بأن الحجر يتفاعل مع الخل فيتصاعد منها غاز ثانى أكسيد الكربون وهو غاز مخدر إلا أننى أجريت التجربة مستعملا الرخام والطباشير ولم ألاحظ أى تخدير.

وهناك عبارة وردت قبالة نقش الختان بسقارة تقول: «إن هذا ليجعله مقبولا» ولعلها تعنى وضع مرهم مخدر على العضو قبل الجراحة.

وقد مارس المصريون الختان منذ بدء التاريخ، وأخذ اليهود هذه السنة عنهم، وكانت العملية تجرى بين السادسة والثانية عشرة، ويرجح أنها لم تفرض إلا على الكهنة وأعضاء الأسرة المالكة. قد نقشت على نقشين، أحدهما فى الكرنك والآخر فى سقارة (شكل ٢-٢). وهذا الأخير منقسم إلى قسمين؛ ونلاحظ فى الجزء الأول العبارة التى ذكرناها والتى تشير إلى التخدير، كما نلاحظ تسمية الختان بالكاهن المختن، الأمر الذى ينوه إلى

طابع العملية الدينى، وقد يفسر عدم ورود أى نص فى شأن الختان فى البرديات الطبية، اللهم إلا نبذة وردت فى (بردية إبرز) ترجمها «إبل» : علاج لفلقة إذا نزفت، فأرجعها إلى عملية الختان وإن كان «جرابو» ترجمها على وجه مختلف : شوكة سنط أحدثت نزيفاً. وإنما أذكر هذا الاختلاف لأبين الصعوبات التى يقابلها من يخوض بحر الطب العتيق.

ويروى «سترابو» أن هذه العملية كانت تمارس أيضاً للبنات، ولكننا نرى ضرورة التحفظ فى قبول تصريحات هذا المؤرخ، إذ إنه ذكر فى الرواية نفسها أن اليهود اقتبسوا عادة الختان للذكور، والخفض للإناث من المصريين، والمعروف أن اليهود لم يخفضوا بناتهم البتة.

وإذا كان تفسير نقش الختان لا يحتمل الشك، فإن المقبرة نفسها تحوى نقشين آخرين يتركان مجالا للخيال، يبين أحدهما أشخاصاً يعنون بقدمى شخص آخر وبيديه وهو ممسك ذراعه بيد منقبضة[٦٣]. وقد رأى البعض فى هذا الرسم تمثيلا للتدليك وتقليم الأظافر، هذا فى حين أن رأى البعض الآخر تمثيلا لتحريكات أوعمليات جراحية.

أما النقش الآخر فإنه يمثل سيدات يخرجن من باب ويتوجهن إلى مكان لا يمكن بيانه لزوال الحجر التالى الحامل لبقية النقش : وقد أغشى على بعض هؤلاء السيدات وخف البعض إلى مساعدتهن على القيام من الأرض. ومما يلفت النظر استدارة بطن إحداهن وامتلاؤه[٦٤]، وهو أمر دعى إلى القول بأن صاحب المقبرة كان طبيباً وإن هذه القاعة، بما فيها من النقوش التى تمثل الختان وبعض العمليات على الأطراف وسيدات حوامل، كانت عيادة الطبيب. هذا مع أن ألقاب صاحب المقبرة لا تشير إلى أى عمل طبى، وأن المختن لقب بالكاهن وليس بالطبيب، فى حين أننا نرى فى قاعة أخرى طبيباً من أتباعه اسمه «عنخ» يحمل لقب الطبيب (سونو).

وهناك نقوش ترجع إلى الأسرتين الأولى والثانية، وهى متصلة بأعياد اليوبيل الملكى (وكان يسمى حب - سد) التى كان الغرض من طقوسها إعادة قوى الحياة إلى الفرعون الكهل وبالتالى إلى الدولة بأجمعها. ويمثل بعض هذه النقوش شخصاً جالساً يصوب نحو رقبة شخص آخر آلة حادة مستطيلة[٦٥]. أما هذا الشخص الآخر فهو ساجد منحن

إلى الوراء وذراعاه مربوطتان إلى الخلف. وقد ذهب (بترى) وغيره إلى أنها تمثل ذبح الأسرى أو القرابين البشرية فى خلال هذه الحفلات. إلا أن (فيكانتيف) قال إنها - بما أنها متصلة بمراسيم الحب - سد - تشبه الشعب بمريض مختنق، وتشبه طقوس اليوبيل بعملية إعادة النفس بفتح القصبة الهوائية، فعدت تلك النقوش كتابة تصويرية يمكن قراءتها على الوجه الآتى : « يتقبل شمال البلاد وجنوبها هواء الروح »، واتخذ منها البرهان على معرفة المصريين لهذه العملية ولفوائدها.

أما الترينة، وهى عملية مارستها شعوب قديمة كثيرة لأغراض هى إلى السحر أقرب منها إلى الطب، فإنها لم تذكر فى النصوص، شأنها فى هذا شأن الختان، إلا أن متاحف عدة تحوى جماجم بها ثقوب مستديرة، تدل حوافها الملساء على حدوث تغيرات حيوية قبل الوفاة، ويرجح أنها نتيجة عملية الترينة. وقد وجدت - بالإضافة - عظام مبتورة وملتئمة، الأمر الذى يدل على إجراء العملية والمريض على قيد الحياة، ثم على شفائه من هذه الجراحة (شكل ٢-٣).

وكانت الخراريج تفتح بالمشارط، والأكياس تفتح بمشارط معينة، ثم تفرغ محتوياتها بمشارط من نوع آخر، وأخيراً يزال غلافها إزالة تامة لاجتناب تولدها من جديد، وهذا بآلات من نوع ثالث، ولنا أن نتعجب من هذه الخبرة الفائقة التى أملت تلك الإجراءات.

أما الكسور والخلوع، فقد رأينا كيف كان مؤلف (بردية أدوين سميث) يوصى بردها بطرائق لا تقل فاعلية عن أفضل طرائقنا اليوم، وكانوا يضعون الأطراف بعد ردها فى جبائر (شكل ٢-٤) كشف عن بعض منها يرجع إلى قبل عهد الأسر أى قبل سنة ٣,٥٠٠ ق. م. وكانت تتكون عادة من قطع من الخشب أو القشرة يتصل كل منها بالأخريات بوساطة أربطة، وتبطن بالكتان، وتوضع حول العضو المكسور كالأسطوانة.

وقد وردت صورة فى مقبرة (إيبوى) المهندس المعمارى، تمثل شخصا يرد كتف أحد العمال المخلوعة (شكل ٢ - ٥) وغيره يتأوه من مدق سقط على قدمه، وثالثا ينتزع من عين زميله شظية (شكل ٢ - ٦)، وكأن هذه الصورة الجامعة تمثل منظرًا لطب الصناعات.

ويوجد على جدار بمعبد (كوم - أمبو) نقش يمثل آلات مختلفة (شكل ٢ - ٧)، قيل إنها جراحية، كما قيل عن سيدتين مرسومتين بجوارها إنهما سيدتان حاملتان جالستان على كرسى الولادة. إلا أن التأمل فى هذا النقش يبين أن تلك الآلات من الضخامة والغلظ ما لا يتفق واستعمالها الطبى، وأن من بينها ميزانا مع أن المعروف أن المصريين لم يألفوا تقدير العقاقير بالوزن، بل كانوا يقيسونها بالحجم، كما أنه من بينها مبخرة وإناء يحتوى بخورًا متصاعدًا، وعين الإله (حور) ذات المعانى السحرية، إلى غير هذا من الأشياء التى ليست لها معان طبية. ولذا فإنى أرجح أن هذا النقش يمثل الآلات التى استعملت فى بناء المعبد وتدشينه، والتى قدمها الإمبراطور تراجان، بانى المعبد، إلى الإله على صورة هدية التأسيس، وكان هذا تقليدًا معروفًا.

أما السيدتان فإنهما آلهتان، كما يبدو من الرموز المنقوشة فوق رأسيهما، وحسبما صورت الآلهة فى بقية المعبد، وما كرسى الولادة المزعوم إلا المائدة المألوفة فى هذه الرسوم.

ومن الآلات الأخرى التى قيل إنها جراحية : مقص مزعوم موجود منه أمثلة فى كل المتاحف، وعندى أنه غير هذا. فإن نصفى تلك الآلة يتقابلان فى وسطهما دون أن يتقاطعا. فإن ضم طرفاهما من ناحية تباعد الطرفان الآخران، بعكس المقصات، ثم إن بأحد الطرفين تجويفًا يستقبل الطرف الآخر الشبيه بالإبرة، الأمران اللذان يرجحان أن تلك الآلة كانت تستعمل لتجعيد الشعر على الطراز الذى كانوا مولعين به.

وفى عالم جراحة الأسنان أوصت (بردية إبرز) بحشو الأسنان المسوسة، وكشف (يونكر) فى مقبرة بالجيزة عن سن قلقة مثبتة إلى جارتها بسلك من الذهب (شكل ٢ - ٨) كما وصف (هارس) وزكى إسكندر سنًا أخرى مثبتة بسلك من الفضة. (شكل ٢ - ٩).

ولنتحدث الآن عن العلاج الباطنى. لقد حتمت فلسفة المرض على المصريين أن يعالجوه بمجموعة من الوسائل هدفها التخلص من سبب المرض أولا، ومن نتائجه ثانيا. لقد تصوروا المرض عاملا خارجيًا يتسلل إلى الجسم : روح غريب، أو غذاء، أو سحر، فإذا دخل الجسم، سرى فى أوعيته وتحول إلى خراج أو ورم، أو دود أو عنصر مرضى

آخر. إذن كان يتحتم أولا التخلص من الروح أو السحر عن طريق الصلوات والتمائم والماء المسكوب على التماثيل الواقعية (شكل ٢ - ١٠)، ومن محتويات الأمعاء عن طريق الملينات والحقن الشرجية وخاصة باستعمال الخروع الذى خصص لفوائده باب مطول فى (بردية إبرز). وبعد ذلك كان يتعين إعادة الأشياء إلى أصولها بالعقاقير، حتى إذا كان سبب المرض روحانيًا.

ولقد شملت العقاقير التى استعملوها مواد معدنية ونباتية وحيوانية. واستخدموا من الأولى الحجارة الكريمة والذهب لتركيب الطلاسم، والشب والنطرون وأملاح الجير والنحاس والأنتيموان والحديد.

ومن النباتات، كانوا يصفون عددا يزيد على مائتين وخمسين. أذكر بعضها مع فوائدها المعروفة : البابونج واليانسون والكمون والنعناع والزعتر وهى طارده للأرياح، والعنصل والعرعر مدرين للبول، والخشخاش والسكران واللفاح مسكنات، والحنضل والصبر والخروع والتين ملينات، والشمم للعينين، والجنطيان وحب الهال والشبت هاضمة ومشهية، الزعتر وقشر الرمان لطرد الديدان، والجعة والنبيذ والزيوت والأصباغ سواغة لعقاقير فعالة.

ومن المواد الحيوانية العسل واللبن، ولقد أحلوا فى المرتبة الأولى لبن المرأة التى أنجبت طفلا ذكرًا، وقد تكرر ذكر هذا الدواء حتى أنه ليبدو أساسا من أسس علاجهم. وبما أنهم كانوا يعدونه سائلا ثمينا فقد كانوا يضعونه فى أوعية مصنوعة على شكل امرأة تحمل على ركبتيها ولدا هزيلا، يظن بعض العلماء أنه الطفل الذى أنجبته إيزيس من زوجها المتوفى أوزيريس : ومن المواد الحيوانية الأخرى كبد الحيوانات لشفاء عشى الليل، ولا شك فى أن كميات فيتامين أ التى يحويها الكبد قادرة على شفاء هذا المرض.

غير أن وصفات كثيرة من تلك التى استعملوها لا تمت إلى الطب بصلة، مثل تدليك جانب الرأس المتألم برأس سمك مقلو، وذلك لعلاج الصداع الجانبى بنقل الألم من الرأس المصاب إلى رأس السمكة. وكذلك علاج العمى بوضع سوائل عين الخنزير فى أذن المريض... إلخ، ويمكن درج تلك العلاجات ضمن العلاجات الشعبية التى

ما يزال الشعب يستعملها، كعلاج الحصباء بارتداء ثياب حمراء أو اليرقان (الصفراء) بمواد صفراء لتشابه الألوان..

وهذا يفتتح بابًا غريبًا هو باب العلاجات الوهمية التى تسعى إلى طرد الشياطين بالمواد المنفرة كالغائط، واجتذاب الأرواح الطيبة بالمواد العطرة أو الحلوى ، على أنه يتحتم علينا عدم التسرع، فى الحكم على بعض العقاقير المسماة بأسماء غريبة، كسن الحمار، أو ريشة الإله تحوت، إذا أننا نجهل حقيقة مدلولها. إننا اليوم نسمى بعض الأعشاب كعب العفريت، وفساء الكلاب إلخ. فهل نحن نقوم برحلات لنجنى جزءا من كعب إبليس، وهل نلتقف الريح من خلف الكلاب لصرفها فى الصيدليات : ولنتخيل شخصا فى القرن الأربعين يقرأ أننا - فى القرن العشرين - نأكل (صوابع زينب) ونتلذذ من (سرة الست) ونطهو (الشيخ المحشى)، ونفتح (عين الجمل) لنأكل لبها، فيتصور أننا نقطع أصابع السيدات أو نحشو بطون شيوخنا، وننتزع عيون جمالنا، هذا هو وضع الذين يتمسكون بحرفية أسماء هذه العقاقير.

ولقد استعار الإغريق العقاقير التى استخدمها المصريون حتى أغربها وسنعرض لها فى الباب السادس من هذا الكتاب.

ومع هذا فإننا نخطئ إذا ظننا أن الطب المصرى كان ثابتًا أو مطرد التقدم، فقد نشأت الحضارة فى مصر فى العهد الحجرى، ووصلت إلى تمام ازدهارها فى عهدها الذهبى، متراوحة بين التقدم والتقهقر تبعا للأزمات السياسية التى قابلتها ولذا فإن أية محاولة لوضع تلك الحضارة أو طبها فى إطار واحد محاولة مصطنعة مفتعلة إذ شتان بين تفكير معاصرى مينا ورعايا رمسيس وبين معارفهم وتحقيقاتهم.

ولكننا نخطئ أيضًا إذا تخيلنا أن طب أى حقبة حقق تقدمًا عما سبقه أو أن الطب بدأ بالسحر وانتهى إلى العلم، كما يبدو بداهة. لقد لاحظ (جرابو) فى شىء من الدهشة أن البرديات الطبية تزيد واقعيتها كلما زاد قدمها. وبالعكس أن الشعوذة تكثر كلما اقتربت البرديات منا وهذا معناه أن الأطباء المصريين وصلوا إلى ما وصلوا إليه من الطب المحقق قبل عهدنا هذا بثلاثة آلاف سنة أى فى عهد تشييد الأهرام، وأنهم وقعوا فى الخرافات عندما اتصلوا بجيرانهم وتلوثوا بأديانهم.

وفوق هذا فإن أى حكم نصدره اليوم يشوبه وجه آخر من النقص لافتقارنا إلى مصادر كافية للبحث. فإننا نعتمد على تسعة مخطوطات هى كل ما وصلنا عن عهد دام أربعين قرنًا. وهذه المخطوطات تختلف قيمتها من واقعية (بردية إدوين سميث) إلى تحريف بردية (لندن وليدن). ومع ذلك فإن أغلب المؤرخين لم يميزوا بينها فأخذوا أوهام البرديات السحرية على أنها النظريات الطبية الرسمية وخلطوا بينها، كأن خلفاءنا يحكمون علينا بقراءة مؤلف استنسخ من نبذ من أحدث المؤلفات مخلوطة بأخرى من كتب السرق ووصفات (ولاد البلد).

ولذا فإن أى حكم يعد مؤقتا قابلا للاستئناف والنقض، فهناك ما اندثر من المخطوطات، وهناك ما لم يتم الكشف عنه إلى اليوم، وهناك بيوت الحياة التى كان يتردد عليها طلبة العلم وهى المدارس التى دمرها الفاتحون والمتعصبون، وهناك كنوز التعليم السرى فى سراديب المعابد.. وهناك، وهناك...

ومن يدرى، فربما أتاح لنا حسن الطالع الكشف عن مدرسة من مدارس بيوت الحياة بالبرديات المودعة بها فتحدث ضجة كالتى أثارتها بردية إدوين سميث. ومهما يكن من أمر، وحتى إذا كان المصريون نشئوا فى جو من السحر والجهل، شأنهم فى ذلك شأن كل الشعوب الفتية، فإنهم كانوا أول من حاول العبور من السحر إلى العلم، فهيئوا الجو للإغريق ولمن بعدهم بالاسكندرية وحوض البحر المتوسط بأكمله.

نعم : لولا مصر ما قدر لهؤلاء الوصول إلى ما وصلوا إليه.

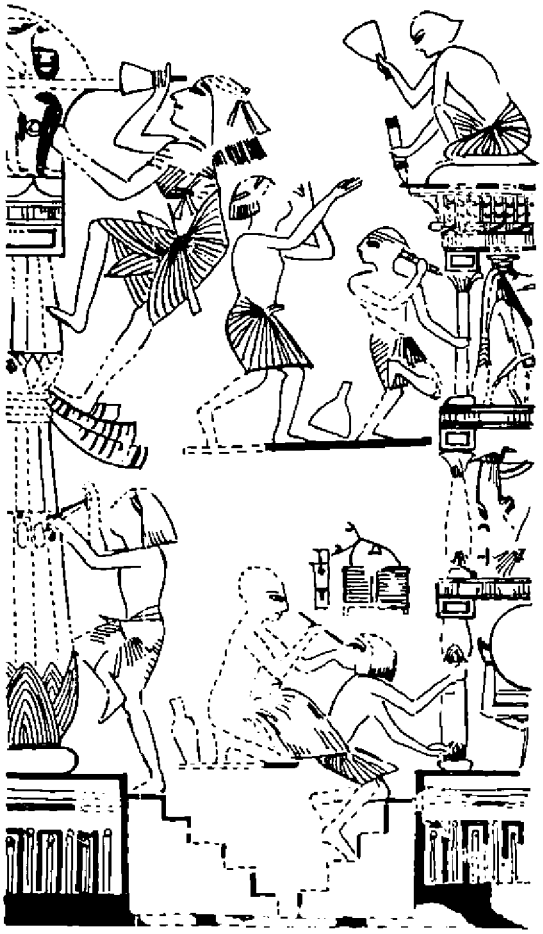

(شكل ٢-٥) منظر ساحة عمل (ورشة) بمقبرة المعمار ايبوى
فوق: عامل يصيح من الألم عند وقوع (شاكوش) ثقيل على قدمه
تحت: شخص يقطر عين شخص آخر أو يسحب منها جسما غريبا

(شكل ٢-٦) رد كتف مخلوعة، مقبرة ايبوى

(شكل ٢-٤) جبائر تحيط عظمة الفخذ

(شكل ٢-١٠) جد - حور الساحر الشافى، متحف القاهرة

(شكل ٢-٧) أدوات قيل عنها أنها طبية وإن كان الأرجح [illegible]

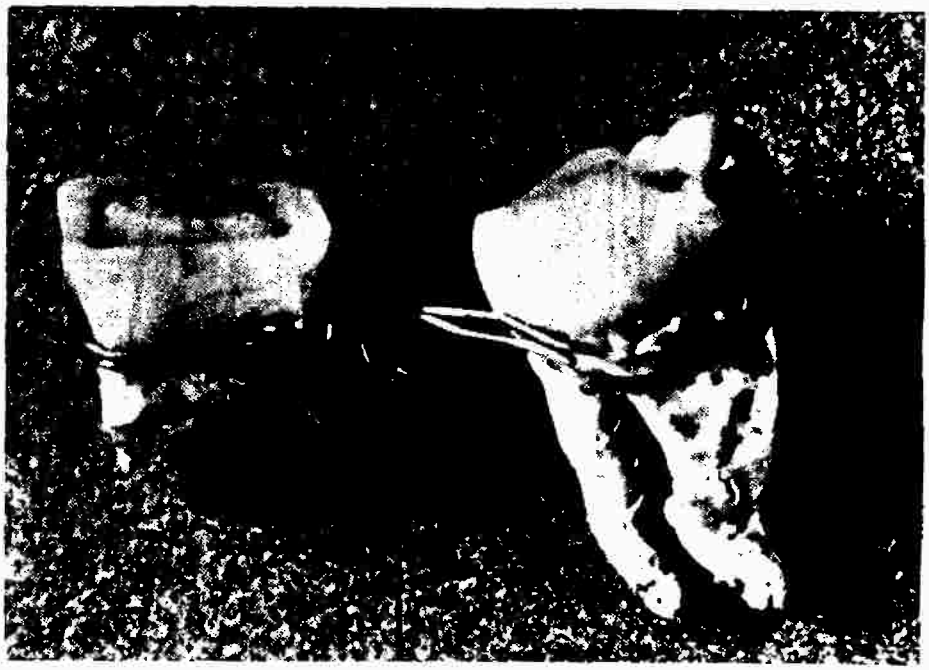

(شكل ٢-٨) سنتان مربوطتان بسلك من الذهب، الدولة القديمة

(شكل ٢-٩) سنة ربطت إلى جريتها بسلك من الفضة قبل أن تنكسر

(شكل ٢-١) امحتب

(شكل ٢-٢) نحت لعملية الختان، سقارة

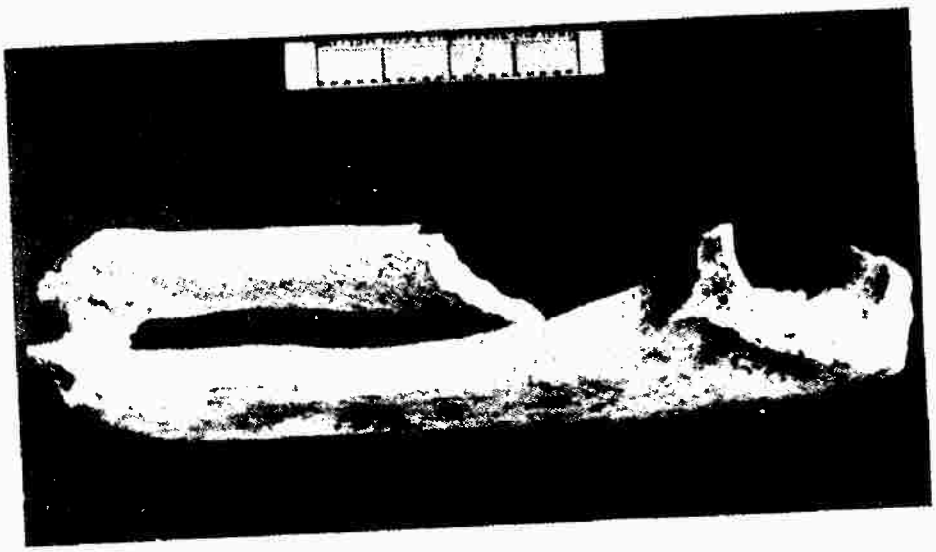

(شكل ٢-٣) عظمتا ساعد بشرى، بترتا فوق المعصم والتأمتا